Reproductive behavior between individual motives and group controls A psychological approach to population fertility

Dr. Mada Shuraiki*

(Received 27 / 7 / 2022. Accepted 30 / 10 / 2022)

□ ABSTRACT □

Population fertility and its related patterns of reproductive behavior constitute one of the main axes of demographic research concerns. There have been several attempts to frame fertility theoretically as being a complex phenomenon, in which overlap very intricate economic, social, cultural, biological and subjective factors.

Among all factors affecting fertility, this paper is interested in the psychological subjective dimension that affects human reproduction in itself, and in its complex interactions with societal conditions and constraints. It proceeds from an interdisciplinary perspective and examines how demography uses psychological knowledge in adjusting concepts related to the reproductive behavior of the population, and seeks to highlight the value of the child in its psychological and social connotations. It also raises the reproductive question in the light of gender issues and roles entrusted to men and women, and their changes. Moreover, it discusses reproductive desires and intentions, the conceptual problems related to their use, and their repercussions in the results of the habitual quantitative surveys in fertility studies.

This study is, therefore, an attempt to get away from the stereotypical knowledge of population fertility, towards a level that relates more closely to the reality of human being as an individual on one hand, and as an individual within a social system on the second hand. It highlights the cognitive addition that maybe provided by the engagement of demographic research in an interdisciplinary work, a work that benefits from the broad helpful cognitive system that can be offered by other social and human disciplines. At the same time, the study is concerned with raising the methodological standards that we need to adopt in this kind of interdisciplinary thinking, in order to reach through it to a more disciplined knowledge of this complex phenomenon.

Keywords: Reproductive behavior, Interdisciplinary, Reproductive desires, Reproductive intentions, Demographic Survey.

* **Associate Professor, Department of Sociology Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

السلوك الإنجابي بين دوافع الفرد وضوابط الجماعة
مقاربة نفسية للخصوبة السكانية

د. مدى شريقي*

(تاريخ الإيداع 27 / 7 / 2022. قبل للنشر في 30 / 10 / 2022)

□ ملخّص □

شكّلت الخصوبة السكانية وما يرتبط بها من أنماط سلوكٍ إنجابي إحدى المحاور الرئيسة في انشغالات البحث الديموغرافي، وجرت محاولات عدّة لتأطيرها نظريًّا بوصفها ظاهرة مركّبة، تتداخل فيها عوامل اقتصادية واجتماعية وثقافية وبيولوجية وذاتية بالغة التعقيد.

من بين مجمل العوامل المؤثرة في الخصوبة، تتجه هذه الورقة نحو البعد الذاتي النفسي الفاعل في الإنجاب البشري في حدِّ ذاته أولًا، وفي تداخلاته المعقدة مع الشروط والإكراهات المجتمعية ثانيًّا. وهي تنطلق من منظور يقوم على تكامل الاختصاصات فتبحث في كيفية استعانة الديموغرافيا بعلم النفس في ضبط المفاهيم المتعلقة بالسلوك الإنجابي للسكان، وتسعى إلى الإضاءة على قيمة الطفل في دلالاتها النفسية والاجتماعية. كما تطرح المسألة الإنجابية في ضوء قضايا النوع الاجتماعي والأدوار المنوطة بالرجل والمرأة وتغيراتها، وتبحث في الرغبات والنوايا الإنجابية وإشكالاتها المفاهيمية وانعكاسات ذلك في نتائج المسوح الكمية المعتادة في دراسات الخصوبة.

هذه الدراسة هي إذًا محاولة للخروج من نمطية المعرفة المتعلقة بالخصوبة السكانية باتجاه مدى أكثر التصاقًا بحقيقة الإنسان كفرد بذاته أولًا، وكفرد ضمن منظومة اجتماعية ثانيًا. وهي إذ تضيء على الإضافة المعرفية التي يقدمها انخراط البحث الديموغرافي في عمل تكاملي، بالاستفادة من المنظومة المعرفية الواسعة والداعمة التي تتيحها فروع اجتماعية وإنسانية أخرى؛ فإنها تنشغل في الوقت ذاته بالإشارة إلى الضوابط المنهجية الواجب اعتمادها في هذا النوع من القراءات التكاملية، للوصول بها ومن خلالها إلى معرفة أكثر انضباطًا بهذه الظاهرة المركّبة.

الكلمات المفتاحية: سلوك إنجابي، تكامل اختصاصات، رغبات إنجابية، نوايا إنجابية، مسح سكاني.

*أستاذة مساعدة، قسم علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

مقدمة

ليست مناقشة ظاهرة الخصوبة السكانية بجديدة، فمن بين الموضوعات المحورية الثلاثة الكبرى في الديموغرافيا: المولودية والوفيات والهجرة، حظي الإنجاب البشري وما يرتبط به من أنماط سلوكية، بالقسط الأوفر من الدراسة والتحليل نظريًّا وتطبيقيًّا منذ نشأة العلم وتأسيس أدواته البحثية. لا بل ويمكننا القول إنّ أيًّا من الظواهر الرئيسة والفرعية التي تناولتها الديموغرافيا وما تزال، لم يحظَ يومًا بما حظيت به الخصوبة السكانية من انشغال الباحثين من مختلف المدارس الفكرية والتيارات النظرية.

لماذا الخصوبة من جديد إذًا؟ الواقع أنّ هذا الانشغال الطويل بالمسألة الإنجابية لا يعني الوصول إلى تأطير نظري محدّد تمامًا لهذه الظاهرة المعقدة بنيويًّا. هكذا نجد أنه على امتداد عقودٍ من الفكر السكاني ثم من البحث الديموغرافي، وبالرغم من تعدد الأطر النظرية التي تتناول الخصوبة والإنجابية، ما يزال من الصعوبة بمكان تقديم رؤية تركيبية وتحليلية متكاملة لمجمل العوامل الفاعلة في الإنجاب البشري. ويمكن القول مبدئيًّا إن صعوبة التأطير النظري للإنجابية إنما تقترن من جهة بالصعوبات التي واجهت محاولات الديموغرافيا في حدّ ذاتها وضعَ بنيان نظري لها، ذلك أن العلم اشتغل طويلًا على إعداد أدواته الوصفية والتحليلية وتطويرها، فانشغل مؤسسوه إلى حدّ ما عن بناء منظومة تنظيرية متكاملة تتناول موضوعاته برؤية شمولية كافية. وتقترن من جهة ثانية بحجم التعقيد الكبير الذي يسم الظاهرة في حد ذاتها، والتي تتداخل فيها جملة من العناصر المجتمعية والثقافية والذاتية البالغة التشابك، فتجعل منها موضوعًا لتأثير عوامل تقع في مجال علوم اجتماعية وإنسانية متعددة تتجاوز حدود الديموغرافيا في حدّ ذاتها.

يأتي في هذا السياق بالذات الدور المحوري للبحث القائم على تكامل الاختصاصات Interdisciplinarité، بما هو «نمط بحثي [...] يقوم على إدماج معلومات وبيانات وتقنيات وأدوات ووجهات نظر ومفاهيم و/أو نظريات من فرعين معرفيين أو أكثر أو من هيئات معرفية متخصصة، بغرض تقديم فهم جوهري، أو حل مشكلات تقع حلولها في موضع خارج النطاق المحدد لفرع معرفي واحد أو لمجال ممارسة بحثية» (Miller, 2020). والحال فإن التأسيس النظري الأحدث لمختلف القضايا موضوع الديموغرافيا وعلى رأسها الخصوبة، إنما حدث ضمن حالة من العمل التكاملي الذي جمع هذا الفرع المعرفي بفروع أخرى متعددة، وهو ما أنتج تنظيرًا لظاهرة الخصوبة مستندًا إلى بعد اقتصادي حينًا، وسوسيولوجي أو ثقافي أو جغرافي أو نفسي أو بيولوجي–تطوري في أحيانٍ أخرى[1]. من بين مجمل هذه القراءات المتنوعة، سنتوجه في هذه الدراسة إلى بعدٍ لعله، بحكم حداثته النسبية، الأقل حضورًا على مستوى التأطير النظري للخصوبة في العموم، وهو بالتأكيد الأقل حضورًا على مستوى البحوث العربية التي تتناول التنظير لظاهرة الخصوبة؛ وهو البعد المرتبط بالفهم النفسي للخصوبة وما يتّصل بها من جوانب سلوكية فردية وجمعية.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الفصل نظريًّا بين بعد اقتصادي وآخر ثقافي وآخر نفسي، وغيرها من أبعاد يجري تناول الخصوبة والمسألة الإنجابية وفقًا لها؛ لا يعني بطبيعة الحال افتراض وجود انفصال صريح بينها على مستوى الواقع. إنما يقوم الفصل بغرض تسليط الضوء بشكل معمّق على أحد الأبعاد دون غيره، والإحاطة به من جوانبه المختلفة، وهو فهم يتطلب تنحية العوامل الفاعلة الأخرى – إلى حدٍّ ما، من دون أن يعني ذلك تغييبها تمامًا أو التقليل من أهميتها. ومن هنا فإننا سنعمد إلى التوقف كلما اقتضت الضرورة عند بعض نقاط الالتقاء بين القراءة النفسية التي هو موضوع بحثنا، وغيرها من القراءات التي تقوم على ربطٍ بعوامل أخرى متنوعة، وفي مقدمتها العوامل الاجتماعية والثقافية.

[1] **للاطلاع على تكثيف غنيّ وموجز لأهم الأطر النظرية للخصوبة يمكن الرجوع على سبيل المثال إلى (Leridon, 2015).**

يسعى البحث إلى الإجابة عن عدد من التساؤلات التي نوجز أهم عناصرها في ما يأتي:
كيف تستعين الديموغرافيا بعلم النفس في ضبط المفاهيم المتعلقة بالسلوك الإنجابي للسكان، وكيف نفهم من هذا المنظور قيمة الطفل والدلالة الاجتماعية التي يحملها؟ أين يقع الحد الفاصل بين ما هو فردي وما هو جمعي في التفضيلات والرغبات الإنجابية؟ ثم ما الدور الذي يؤديه كل من الرجل والمرأة في هذا الصدد، أو بكلمات أخرى، كيف ترتبط معالجة الرغبات الإنجابية بقضايا النوع الاجتماعي؟ وهل بإمكان المسوح والاستطلاعات الديموغرافية التي تتناول الخصوبة وما يرتبط بها من رغبات ونوايا أن تقيس بدقة كافية واقع ومآلات السلوك الإنجابي للأفراد؟
هذه الدراسة هي إذًا محاولة للخروج من نمطية المعرفة المتعلقة بالخصوبة السكانية باتجاه مدى أكثر التصاقًا بحقيقة الإنسان كفرد بذاته أولًا، وكفرد ضمن منظومة اجتماعية ثانيًا. إنها محاولة لعرض وتوصيف الآفاق التي تنفتح تحليلًا وفهمًا أمام الباحث الديموغرافي، إن هو انخرط في عمل علمي تكاملي مستفيدًا من المنظومة المعرفية الواسعة والداعمة التي تتيحها فروع اجتماعية وإنسانية أخرى.

أولًا– سؤال الإنجاب في الديموغرافيا، من التفسير بالعقل إلى التفسير بالرغبة

دأبت النظريات السكانية ذات البعد الاقتصادي منذ ستينيات القرن العشرين على التأكيد على فكرة الإنسان الاقتصادي، أي الفاعل العاقل الذي يستطيع التنبؤ بسلوكه، فقدّمت تأطيرًا للسلوك الإنجابي يقوم على اعتباره حالة خاصة من بين مجمل الخيارات التي تُطرح على الفرد ويتعامل معها عبر عدد من التكيفات (Leridon, 2015)، وهي تكيفات اقتصادية في المقام الأول، أي تقوم – إن أردنا التبسيط – على حساب موازنة بين تكلفة الطفل والمنفعة المتحصلة منه، فيميل الناس إلى كثرة الإنجاب في المنظومات الاقتصادية–الاجتماعية التي تستفيد من الطفل كقوة عمل وكضمان في الشيخوخة، وإلى الحد من الإنجاب حين تقل المنافع الاقتصادية التي يحققها الطفل في مقابل ازدياد التكلفة ومتطلبات عملية التنشئة اللازمة لتهيئة الأبناء لدخول سوق عمل يزداد تعقيدًا يومًا بعد يوم.
من هذا المنطلق حظيت نماذج الاختيار العقلاني Choix rationnel بحضور واسع النطاق في دراسات الخصوبة، وبنيت على نوعين من المحددات وهما: الإكراهات Contraintes التي تشير إلى الشروط الخارجة عن الأفراد؛ والقيم Valeurs، وتشير إلى الحالات الداخلية التي يتمكن الناس من خلالها من تقويم عواقب الفعل (Friedman, Hechter, Kanazawa, 1994). وبذلك يتحدد السلوك الإنجابي من خلال التأثير المشترك لكل من القيم التي تعزّز النزوع الإنجابي أو تضعفه، والإكراهات التي يفرضها الواقع على الأفراد، والتي قد تتوافق أو تتعارض مع الرؤية القيمية للفرد. يعمل الأفراد على المفاضلة بين شدة الإكراهات وأثر القيم ويتخذون بناء عليها مختلف قراراتهم الإنجابية (أن ينجبوا أم لا، وعدد الأطفال الكلي، والتباعد بين الولادات)، وتكون عناصر المفاضلة وركائز القرار تقويمية عقلانية في نهاية المطاف.

دفع إدراج البعد الثقافي الأنثروبولوجي في النظرية الديموغرافية شيئًا فشيئًا إلى توسيع هذه النظرة التي ترى في الفعل نتاجًا لمجموعة من المخططات القصدية الشمولية، وإلى رفد الديموغرافيا برؤية تتجاوز الحدود الضيقة لمبدأ الاختيار العقلاني، وتتضح من خلالها كيفية تأثير الشروط التاريخية والثقافية الخاصة ليس في ما ينوي الناس فعله فحسب، بل وحتى في كون فعلهم هذا قصديًّا أو عقلانيًّا بمطلق الأمر (Johnson–Hanks, 2007). وفق هذا المنظور، يكون المحرك الرئيس للقرار الإنجابي مرتبطًا بشكل مباشر بجملة من التجاذبات الثقافية والسيرورات الاجتماعية التي تفرض نفسها على الأفراد بقوة قادرة على تجاوز أثر الخيار الاقتصادي الواعي في حد ذاته. وعليه فإنّ هذا المنظور يركّز

على مسألة أنّ الخصوبة في نوعنا الاجتماعي تتأثر بالأفراد الآخرين بما في ذلك تواجد وسلوك عائلتنا وأصدقائنا، وكذلك بالمعايير الاجتماعية الأكثر اتساعًا التي تحيط بالعملية الإنجابية، والتي من شأنها تزويد الأفراد بمجموعة من الخيارات والاستراتيجيات المتاحة (Sear, Lawson, Kaplan, Shenk, 2016).

وفي المجمل، يبقى التساؤل الأهم لدى النظر إلى هذين البعدين التحليليّين (الاقتصادي والاجتماعي–الثقافي) هو ذاك المتعلق بتوقيت وكيفية وأسباب بدء تدخل البشر في هذا الجانب الفيزيولوجي الصرف، أي: متى وكيف ولماذا صار هذا البعد الفيزيولوجي الإنجابي موضوع حسابات وتخطيط في المقام الأول. يعبّر الديموغرافي أنسلي كويل عن الأهمية المحورية لهذه النقلة في تاريخ البشر بقوله: «في تلك اللحظة من التاريخ، حين بدأ الناس يسألون أنفسهم عن العدد الذي يرغبون في الوصول إليه في نهاية حياتهم الإنجابية، تغيرت بالمطلق طريقتهم في تفكّر حياتهم ومشروعاتهم الحياتية، وباتت جديدة تمامًا» (Johnson–Hanks, 2007: 8). يستوقفنا في عبارة كويل هذه الطرحُ الذي يتعلق بـ"الرغبة" Désire (في قوله: عدد الأطفال الذي يرغبون في الوصول إليه)، وهو طرح بالغ الأهمية هنا، وكان لبدء التفكير فيه ديموغرافيًّا أن فتح الباب الأول للبحث في العامل النفسي المؤثر في الإنجاب على المستويين الفردي والجمعي، من خلال طروحات تتناول الرغبات الإنجابية ودورها في السلوك اللاحق، والعواطف Émotions ودورها الفاعل في اتخاذ القرار الإنجابي. أو بكلمات أخرى، فتح هذا الطرح الباب أمام حضور عناصر البنية النفسية والعاطفة الإنسانية كعوامل فاعلة، مباشرةً وكوسيط، في اتخاذ القرار الإنجابي.

تنطلق المقاربة النفسية للخصوبة السكانية إذًا من سؤال أوّلي نجده في مختلف المقاربات الأخرى أكانت اقتصادية أم اجتماعية أم ثقافية أم غير ذلك، وهو سؤال "لماذا ننجب؟"، لكن الإجابات التي تعمل على تقديمها تتمحور بشكل رئيس حول بعدين أساسيين هما الرغبة والعاطفة البشرية من جهة وقيمة الطفل المعنوية من جهة أخرى؛ مبتعدة بذلك عن قواعد الإنسان العاقل وقوانين المنفعة الاقتصادية والاجتماعية للطروحات الكلاسيكية.

لماذا ننجب؟ قد ننزع، إن نحن أردنا تبني هذه المقاربة النفسية، إلى تقديم إجابة أولية متعجلة بعض الشيء؛ فنقول إنّ دافع الإنجاب الرئيس هو الرغبة في الطفل في حدّ ذاته أولًا، والرغبة في الاستمرار من خلاله كأفراد وكنوع ثانيًا، وإنّ هذه الرغبة هي حاجة "طبيعية" ستقود إلى سلوك إنجابي يشبعها. لكنّ هذه الإجابة في ذاتها إشكالية على مستويين، فمن جهة، ينبغي أن نحدد بضبط دقيق ما تعنيه الرغبة هنا، وكيف لها أن تقود السلوك وتوجهه؛ ومن جهة ثانية، ينبغي أن نكون على وعيٍ كافٍ بتعدد حقول القرار الإنجابي التي لا يمكن لها أن تدرَك إلا في تداخلها وتقاطعاتها. ذلك أنّ الخصوبة تمثّل سمة غاية في التعقيد تتحدد نفسيًّا وسلوكيًا في آن، ويتوقف العدد الكلي من الأطفال الذين تنجبهم المرأة على عدد من القرارات الجوهرية التي يمكن إيجازها بتساؤلات حول ما إذا كانت ستنجب أم لا، وإن كانت ستنجب فمتى ستنجب طفلها الأول، وهل ستنجب طفلًا تاليًا ومتى، ثم متى ستتوقف عن الإنجاب (Sear, Lawson, Kaplan, Shenk, 2016). ثمّ إنّ مجمل هذه الأسئلة يستدعي بالضرورة تساؤلات في شأن "قيمة الطفل" Valeur de l'enfant، والحدود التي تقع ضمنها هذه القيمة وأبعادها، وبالتالي طبيعة الإشباعات النفسية–الذاتية (بجانب الاجتماعية والاقتصادية) التي يحققها الطفل، وكيف تدرك مختلف الثقافات البشرية[2] هذه القيمة وما الموضع الذي تحتله فيها.

[2] **يمكن الاطلاع ببعض التفصيل على أثر العامل الثقافي في فهم الخصوبة في: (شريقي، 2021: 192-200).**

تقوم استعانة الديموغرافيا بعلم النفس في هذا المجال على محاولة الوصول إلى إجابات عن هذه الأسئلة، على ألا تكون هذه الإجابات نفسية صرف، بل قابلة للتوظيف في صالح تعزيز البحث الديموغرافي المعني بالإنجابية وإغنائه، وهنا تكمن الأهمية المفصلية للعمل التكاملي الذي نسعى إلى الإضاءة عليه في بحثنا. وعليه فإن البعد النفسي الذي يمسّ هذه المجموعة من الأسئلة لا يعنينا في ذاته بل بما يقدمه للدراسات الديموغرافية من أدوات فهم وتحليل، وبما يتيحه من تعمق في إدراك ارتباط هذا البعد النفسي بكل ما هو اقتصادي واجتماعي وثقافي في المجتمعات على اختلافها.

ثانيًا– الرغبة في الإنجاب وقيمة الطفل: في ثنائية الفرد والجماعة

في مؤلّفه "قلق في الحضارة" يضعنا سيغموند فرويد أمام ثنائية جرى تطور الإنسان الفرد من خلالها إذ يقول: «يبدو تطور الفرد حصيلة تداخل ميلين: التطلع إلى السعادة الذي نسميه عادةً بـ"الأنانية"، والتطلع إلى الاتحاد بسائر أعضاء المجتمع الذي نصنّفه بـ"الغيرية"» (فرويد، 1996: 11). بالانطلاق من هذه الفكرة، نستطيع موضعة الرغبة الإنجابية في سياقٍ يسمح لنا بفهم ثنائية الفرد والجماعة الفاعلة في القرار الإنجابي. فالرغبة في الإنجاب هي حصيلة تجاذبات تخص الفرد في تطلّعه إلى سعادته الخاصة، وأخرى تخص موقع الفرد ضمن الجماعة ومتطلبات هذه الأخيرة في مسعاها لتحقيق أهدافها الجمعية التي تتجاوز الأفراد وتنظم وجودهم معًا، ذلك أنّ الحياة المشتركة، مثلما يؤكّد فرويد، لا تغدو ممكنة «إلا إذا توصّلت الغالبية إلى تشكيل تجمع أقوى من قوة كل عضو من أعضائه على حدة، وإلى المحافظة على تلاحم متين في مواجهة كلّ فرد على حدة» (فرويد، 1996: 49).

بالرغم من كلّ التعقيد الذي يعتري العوامل الفاعلة في القرار الإنجابي، إلا أنّها تندرج في مجملها إما في إطار ما يريده الفرد، أي رغباته الخاصة في الإنجاب ومدى الإشباعات المتحققة له ذاتيًّا من خلال الإنجاب، أو عدمه، أو من خلال إنجاب هذا العدد أو ذاك من الأطفال؛ أو في إطار ما تريده الجماعة، أي الاتجاهات الجمعية القيَمية والمعيارية القائمة، ومجمل ما يرتبط بها من أهداف ذات طابع اقتصادي أو اجتماعي–ثقافي، بل وحتى أيديولوجي أحيانًا[3]، وهذه وتلك تؤثر وتتأثر ببعضها البعض، فتشكل معًا العناصر الرئيسة التي تحكم الرغبة الذاتية في الإنجاب، وقيمة الطفل فرديًّا وجمعيًّا.

1. الإشباعات الذاتية والمجتمعية المتحصِّلة من الطفل

معلومٌ أنّ الطفل يلعب دورًا في تلبية وظائف عدة في حياة البالغين قد يكون أبرزها للعيان بناء علاقة عاطفية متميزة عن سواها سواء لدى الأم أو الأب، إلى جانب تعزيز الرابطة بين الزوجين من جهة، وبينهما وبين المجتمع الذي ينتمون إليه من جهة أخرى. لكن لهذا الحديث العام عن الإشباع العاطفي تمثيلات مختلفة على المستوى النفسي تبعًا لاختلاف الأطراف المنخرطة فيه. تقدم ماري–أوديل بورغوينيون تعبيرًا عن هذا التباين في التمييز الآتي:

«الرغبة في الحمل، والرغبة في الأمومة، والرغبة في الأبوة، والرغبة في الطفل؛ ليست تعابير متجانسة يعبّر بعضها عن بعضها الآخر. وبما أنها يمكن أن تعاش هواميًّا من طرف كل واحد من الجنسين، فإنّ لكل واحدة من هذه الرغبات خصوصيتها لناحية امتلاكها ديناميكيتها الخاصة، وغايتها الخاصة التي تغوص في عمق حميميتنا النزوية وتسهم في مجمل حركاتنا الوجدانية اللاشعورية، وفي تمثيلاتنا المتخيلة والرمزية التي تنسج صراعيتنا النفسية [...]، إنّ ما يجري التعبير عنه ضمن ما يأخذ في

[3] **يمكن الاطلاع على مناقشة لهذه العوامل في مثال عن الحالة السورية يوضح كيف لعبت العوامل الجيوسياسية والأيديولوجية دورها في تدعيم نزعة المولودية في المجتمع السوري وعلى مستوى السياسات على حدٍّ سواء خلال العقود الأولى لما بعد الاستقلال في (شريقي، 2015: 70-73).**

النهاية شكل هذه الرغبة هو في غاية التعقيد والتفرّد، ما يجعل من المريب العمل على تأطيره في تأويلات أحادية المعنى ستتسم حتمًا بكونها اختزالية» (Bourguignon, 1987: 100–101).

من هذا المنطلق، يصير لزامًا على الباحث الديموغرافي المعني بدراسة الظاهرة الإنجابية تعميميًّا أن يأخذ في الحسبان – أثناء عمله التحليلي – تفرّد الرغبة الإنجابية رغم ما قد يبدو من عموميتها، أي أن يدرك حقيقة تأثرها بأبعاد ذاتية تخص الفرد في بنيته النفسية والعاطفية، جنبًا إلى جنب مع تأثرها بالمنظومة المجتمعية المحيطة. وبالنظر إلى أنّ الدراسات الديموغرافية للخصوبة تتوجه في معظمها نحو النساء عمومًا، والنساء في سن الحمل والإنجاب خصوصًا، بوصفها الفئة المعنية بشكل مباشر بالحمل والإنجاب؛ فإن عليها بالتالي أن تبدأ من منطلق نفسي يأخذ في الاعتبار حقيقة أن «الأمومة بصفتها تجربة فردية، لا تمثّل فقط طورًا بيولوجيًّا، إنما أيضًا كنهًا نفسيًّا تتلخص فيه تجارب فردية عدة، وذكريات، ورغبات، ومخاوف، سبقت التجربة الواقعية بكثير» (دوتش، 2008: 9)، ويكون الحمل بذلك بمثابة فرصة لإعادة صوغ العلاقات بالوالدين والأخوة والشريك، وعلاقة المرأة بجسدها ذاته، ودورها في المجتمع (Abdel–Baki, Paulin, 2004). ومن هنا فإنّ هذا المنظور لا ينفي أثر العوامل الثقافية في فهم الظواهر النفسية في حدّ ذاتها، بل يرى أنّ العنصر النفسي يتعلّق – في ما يخص المسألة الإنجابية – تعلّقًا استثنائيًّا بالبنية الاجتماعية المفترضة (دوتش، 2008).

هكذا يكون علينا أن نتعامل مع الرغبة في الإنجاب كحالة إنسانية عامة من جهة، فهذه الرغبة كانت وما تزال حاضرة لدى الأكثرية الكاثرة من البشر على امتداد التاريخ، وإن اختلفت بطبيعة الحال في الشدة باختلاف المنظومات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية؛ وأن نتعامل معها كحالة خاصة من جهة ثانية، تتأثر بالإشباعات العاطفية والانفعالية على الرغم من خضوعها للقرار العقلاني المنبني على حسابات تكلفة إنجاب طفل وتنشئته في مقابل المنفعة المتحصّلة من هذا الإنجاب.

إن نحن انطلقنا من منظور بيولوجي تطوري صرف، يمكن أن نفترض أنّ الإشباعات والمكافآت العاطفية المتحصّلة من الإنجاب ستمارس ضغطًا مستمرًّا لإنجاب أكبر عدد ممكن من الأطفال وفق ما تسمح به الفيزيولوجيا البشرية. لكن من الواضح في المقابل أنه مهما بلغت القوة المحددة لهذا الضغط، يبقى بالإمكان تعديله من خلال الثقافة، لا بل وقد يصل الأمر حدّ استيعاب ما هو مضاد له تمامًا من ممارسات رافضة للإنجاب بالمطلق (Kennedy, 2002)، وهي ممارسات يتزايد حضورها مؤخّرًا في عدد من المجتمعات البشرية، وإن بقيت تعبّر عن حالات خاصة غير معمّمة[4]. من هذا المنطلق، تتبدى صعوبة رسم حدٍّ فاصل تمامًا بين ما هو ذاتي وما هو مجتمعي لدى معالجة هذا البعد النفسي للخصوبة. فإذا ما تناولنا النموذج الأكثر عموميّة لدى البشر من حيث الامتداد الزمني والانتشار المكاني، يكون الاتجاه نحو كثرة الإنجاب هو الغالب. ويكون الاتجاه النفسي الأهم الذي يؤثر في الرغبة في إنجاب طفل هو ذاك الذي يقوم على الربط بين الخصوبة والتحقيق الفاعل للدور الجنسي، إذ تُعرَّف الذكورة لدى غالبية سكان المجتمعات البشرية، جزئيًّا على الأقل، لناحية عدد الأطفال الذين يجري إنجابهم، باعتبار الإنجاب برهانًا إيجابيًّا على الفحولة والقدرة. في حين كثيرًا ما يُفترض أن النساء يقدمن إسهامهن الأكثر قيمة إلى المجتمع، ويحققن إنجازهن الشخصي، من خلال

[4] ليس لنا أنا نغفل عن المقابل المضاد لهذه "الرغبة في الإنجاب"، وهي "الرغبة في عدم الإنجاب مطلقًا" التي تعبّر عنها أقلية من السكان في أي مجتمع من المجتمعات، وباتت أكثر وضوحًا اليوم في المجتمعات الحديثة التي شهدت توسّعًا هائلًا في انتشار قيم النزعة الفردية (Individualisme) وصارت تصرّح بدعم نمط حياة يقوم على عدم الإنجاب الطوعي (Le mouvement Child-free)، لكننا لن نخوض في تفصيلها هنا لأنها ما تزال على اتساع انتشارها التدريجي ظاهرة محدودة أولًا، ولأن الموضوع في ذاته يخرج من حدود الاهتمام المباشر لبحثنا هذا ثانيًا.

الأمومة (Watson, 1972) تتراجع هذه التصنيفات بطبيعة الحال مع تعقد الحياة الاجتماعية وما يرافقها من تغير في المنظومة القيمية وفي رؤية المجتمع للأدوار الاجتماعية لكل من الرجل والمرأة عمومًا، وللمرأة بوجه خاص، وكذلك في رؤية المرأة لذاتها وكيانها وهويتها بالذات، «فالطفل يمنح هويّة وأملًا في الإنجاز الاجتماعي لأولئك اللواتي ليس لديهنّ غيره، في حين تدخل الأمومة في منافسة مع هويات أخرى في حال وجودها» (Bourguignon, 1987: 108).. وبذلك تتفاعل في القرار الإنجابي إشباعات نفسية ذاتية للمرأة وللرجل (مع فروقات سنناقشها لاحقًا)، وتوازنات اقتصادية واجتماعية، وصيغ ثقافية ودينية متنوعة[5].

هكذا يحقق الإنجاب إشباعًا ذاتيًّا من خلال تأكيد الكيان الذكوري أو الأنثوي، وكأنما في استنكاف الفرد عن الإنجاب – لطفل واحد على الأقل في منظومات مجتمعية معينة، ولعدد كبير من الأطفال عمومًا والذكور منهم خصوصًا في منظومات مجتمعية أخرى – خسارة لجزء من الذكورة أو الأنوثة. يرى بيتر واتسون (Watson, 1972) أنّ مثل هذه النظرة هو ما يفسر محدودية نجاح برامج تنظيم الأسرة في ثقافات معينة [ثقافات المجتمعات السابقة على التحول، إن نحن عدنا إلى لغة الديموغرافيا]؛ وهو ما يفسِّر عدم شعبية وسائل بعينها حتى في المجتمعات الحديثة [اللاحقة على التحول، ديموغرافيًّا]، كمثل تعقيم الرجال Vastectomy، وهو إجراء بسيط وفاعل لوقف الإنجاب تمامًا، لكنه يظل قليل الشيوع مقارنةً بغيره من الوسائل، وخصوصًا تلك الموجهة إلى المرأة؛ ولعل في الربط العاطفي بينه وبين الخصاء Castration، ومساسه بالتالي بصورة الذكورة القديمة المتجذرة في الأذهان، تفسيرًا جزئيًّا على الأقل لضعف معدلات تواتره كوسيلة فاعلة لوقف الإنجاب .

والحال فإن هذا البعد المرتبط بالعاطفة لم يحظَ بما يكفي من انتباه من طرف البحوث الديموغرافية الاجتماعية المعنية بالإنجابية على الرغم من أهميته الكبيرة في إدراج هذه الصراعية بين الفردي والجمعي ضمن محاولة فهم الخصوبة السكانية؛ وارتباطه بمسعى الأفراد المزدوج لتحقيق سعادتهم الخاصة والاتحاد بسائر أعضاء المجتمع، وفق منظور فرويد الذي أوردناه أعلاه. وتشير العاطفة في هذا السياق إلى مجمل «الأفكار المستدمجة التي تتضمّن كلًّا من الصفة المادية – أي حدوث تغير فيزيولوجي أو عصبي في استجابة لبعض المثيرات؛ والمعرفية – أي تقويم المثير تبعًا لظروف الفرد والاستعداد المسبق» (Basu, 2006: 107). من هذا المنظور، يتفاعل تأثير الرغبات في بعديها الذاتي والمجتمعي مع تأثير العاطفة بالمعنيين المادي والمعرفي؛ ويزداد تعقيد هذه التفاعلات بازدياد تعقّد الحياة في حدّ ذاتها، فتشكّل مسألة تحقيق التوافق بين العاطفة والرغبات الذاتية من جهة وبين متطلبات الأطر الاقتصادية والاجتماعية السائدة من جهة أخرى، عبئًا متزايدًا على البشر. تشهد المجتمعات البشرية، وفق آلان جيرار، توسعًا كبيرًا في الخيارات يزيد من الصراعية، ويؤثر في توازن البشر أفردًا ومجموعات، ماديًّا ونفسيًّا؛ ذلك لأن حالة مستمرة من التساؤل يمكن لها أن تثير الاضطراب، إذ ليس من السهل دائمًا تولّي أمر الحرية، يقول جيرار:

«أدى التطور المتراكم والتحسن العام في شروط الحياة إلى إحداث تغيير كبير في علاقة الإنسان بالطبيعة، وهذه المسألة الجلية، تترك أثرها في البحث الديموغرافي. ففي جميع مجالات الوجود اليومي، من أكثرها تواضعًا إلى الأشدّ جوهريّة، يُمنح كل واحد إمكان الاختيار في كل لحظة. اختيار الإقامة والطعام والسكن والنشاط المهني، كلّها أمور لم تعد تُفرض من الخارج. كل إيماءة موجزة هي حصيلة تداول واختيار، عن طريق الموازنة غالبًا بين إمكانات متنوعة (مثلًا: بمن نتزوج، أننجب أطفالًا أم لا، كم طفلًا، ومتى)» (Girard, 1977).

[5] لا يتسع المجال هنا للخوض في المسألة الدينية وتأثيراتها في القضية الإنجابية، فهي تحتمل بحثًا مستقلًّا بذاته. نوقشت بعض جوانب المسألة الإنجابية في الإسلام في سياق دراسة الخصوبة السورية (شريقي، 2015: 376-384؛ 308-310).

تتأتى إذًا راهنية هذه الصراعية بين الذات ورغباتها من جهة، والمجتمع ومعاييره ومتطلباته من جهة أخرى، من كونها ارتبطت إلى حدّ كبير بتعقّد الحياة البشرية وباتساع أفق الاختيار أمام الأفراد. لم يكن هذا حال البشرية في المساحة الأوسع من تاريخها، بل هو وضع ارتبط بالارتقاء الحضاري الذي يجعل «اندماج الأفراد المنفردين في وحدة الجماعة هو المطلب الرئيسي؛ وصحيح أن التطلع إلى إسعادهم يظل قائمًا، لكنه لا يشغل سوى حيّز ثانوي الأهمية» (فرويد، 1996: 111). ومن هنا يتعذر القول بحدود فاصلة بين ما يرغب فيه الفرد شعوريًّا أو لا شعوريًّا في ما يخص القرارات الوالدية، وبين ما يتخذه من قرارات تبدو تكيفية وعقلانية في ظاهرها. تقود مجمل هذه القراءات إلى دعوة البحث الديموغرافي إلى الربط بين عقلانية القرار من جهة والأبعاد الذاتية النفسية لاتخاذه من جهة أخرى. وهو ربط لا يغيب تمامًا عن الفكر الديموغرافي الكلاسيكي وإن يكون حضوره محدودًا إلى حدّ كبير. على سبيل المثال، يقول هارفي ليبنشتين Harvey Leibenstein منذ عام 1977، وباعتماد لغة مأخوذة عن التحليل النفسي، إن «العقلانية الانتقائية Rationalité selective تشير إلى مسعى الأفراد للوصول إلى تسوية بين السلوك الذي يرغبون في تبنيه في غياب الإكراهات (الهو)، والسلوك الذي يرغبون في أن يظهر بأنهم يتبنونه في ما يخص المعايير (الأنا الأعلى). ومن هنا فإن (a) الشخصية، و(b) درجة أخذ الإكراهات في الاعتبار؛ يحددان معًا درجة العقلانية التي يجري حشدها في عملية اتخاذ القرار» (Leridon, 2015: 351).

بهذا المعنى، لا تكون العقلانية معزولة عن البعد النفسي الضارب في أعماق الفرد. وتكون القرارات الإنجابية حصيلة تسوية بين الرغبة الذاتية والمنظور المجتمعي وليست نتاج حساب عقلاني اقتصادي يتحدد بقيمة الطفل الإنتاجية والاجتماعية فحسب. أضف إلى كل ما سبق حقيقة أنّ قيمة الطفل في حدّ ذاتها تظل مسألة إشكالية، إذ يصعب تمامًا أن نقيس المنفعة في مقابل التكلفة حتى على المستوى الاقتصادي. ذلك أنّ المجتمعات ليست في حالة ثبات، بل هي في تغير مستمر، ويتسارع تغيرها في العصور الحديثة مع تسارع وتيرة التقدم العلمي والتكنولوجي، ما يزيد من حدة الصراع القائم على المواءمة بين المنافع والتكاليف. ينطبق الأمر على موقفنا النفسي من الإنجاب، فبالرغم من كل ما تشهده العصور الحديثة من تعقيد ومن اتساع نطاق انتشار النزعة الفردية، لم تنتفِ الصراعية من البعد النفسي الذاتي للخصوبة. ما يزال الإنجاب يمس جانبًا عميقًا في بنياننا النفسي يصعب لمسه علميًّا بدقة كافية. يحلل بيتر واتسون هذا النزوع العميق إلى الإنجاب، حتى عندما لا يعود وجود طفل في حدّ ذاته برهانًا على الفحولة أو تعبيرًا عن اكتمال الأنوثة، بالإشارة إلى أن الإنسان يبقى في حاجة – بصرف النظر عن معتقده الديني – إلى امتلاك برهان ما على أنّ جزءًا منه سيستمر بالبقاء بعد موته، يقول:

«كان الحكام القدماء يصِلون إلى هذه الغاية من خلال القبور والنصب التذكارية المقامة لهم، أما اليوم فينشئ الغني مؤسسة خيرية باسمه لأغراض مشابهة. لكن وعلى مر التاريخ، لم يكن أمام البقية منا سوى التعويل على أطفالنا للتزود ببرهان مادي على خلودنا. قد يقوم الأطفال، والذكور منهم خاصة، بدور الضامن لبقاء اسم العائلة لجيل تالٍ على الأقل. هكذا يكون لحياتنا معنى وأثر يبقى بعد موتنا» (Watson, 1972: 4).

يوجد إذًا تنوع في الأسس النفسية لإشباعاتنا الذاتية الفردية المرتبطة بالوالدية، كما تتنوع كذلك الأسس الثقافية في تصور كل واحد منا كفرد، وفي تصور المجتمعات ككل، لقيمة الطفل. ويزداد هذا التنوع بازدياد تعقّد المجتمعات البشرية واتساع رقعة الأدوار الاجتماعية التي يؤديها كل فرد في المنظومة الأسرية. فتغير مكانة الأسرة كمؤسسة ودور كل من الرجل والمرأة فيها يقود بدوره إلى تعديل في قيمة الطفل على المستويين الذاتي والمجتمعي، وإلى تغيير في

طبيعة الإشباعات التي يحققها وما ينتظر ويتوقع أو يُرتجى من وجوده على المستوى المجتمعي ككل، وعلى مستوى الأفراد عمومًا والأفراد بوصفهم ذكورًا وإناثًا على وجه الخصوص.

2. الإكراهات المقترنة بالإنجاب وقضايا النوع الاجتماعي

ينطلق الربط البحثي بين المسألة الإنجابية وقضايا النوع الاجتماعي من المنظور العام الذي يعدّ الإنجاب مسألة تخص النساء في المقام الأول. هذا المنظور له ما يبرره بطبيعة الحال على اعتبار أنّ تبعات الحمل والإنجاب وأعباءه، وكذلك القسط الأكبر من رعاية الأطفال، إنما يقع على عاتق المرأة. لكن لكي نستطيع أن ننطلق من هذا المبدأ، ينبغي لنا أن نتساءل أولًا عن مدى امتلاك المرأة القدرة على اتخاذ القرار في ما يخص حياتها الإنجابية. هذا التساؤل المهم والمحوري هو الذي دفع البحوث في النوع الاجتماعي إلى تحويل مركز الاهتمام نحو مكانة النساء وفاعليتهن في اتخاذ القرار، وارتباط تغير هذه المكانة بتغير مكانة الرجل ودوره في المجتمع (Leridon, 2015). والحال فإن مسألة الرغبة الإنجابية لدى المرأة والرجل لم تكن حاضرةً بقوة في المجتمعات التقليدية التي تقوم على تركّز أدوار نمطية لكلا الزوجين في إطار منظومة أسرية ومجتمعية واضحة المعالم. لكنّ التغيرات الحاسمة التي شهدتها المجتمعات البشرية وما رافقها من دخول للمرأة إلى ميدان العمل على نطاق واسع، غيّرت من طبيعة الأدوار التي تؤديها؛ وبعدما كان تأكيد كيانها الأنثوي يمرّ بالأمومة والإنجاب، بات هذا الدور يلقي عليها أعباءً كبيرة نفسيًّا وجسديًّا في مقابل مكاسب أقل على مستويي إثبات الذات والمكانة الاجتماعية على حدّ سواء، الأمر الذي قد يلعب دورًا في الحدّ من رغبتها في الإنجاب خلافًا لحال الرجل.

يمكن الاستفادة من إحدى تطبيقات النظرية التطورية في الديموغرافيا لفهم هذه الفروقات في المجتمعات الحديثة، إذ تفترض نظرية "الوصول إلى الموارد" أنّه عند حدوث تحول من بنية زراعية مكثفة إلى بنية تحتية صناعية، فإن الرجال والنساء يتأثرون باستثمار المزيد من وقتهم في إنفاق الطاقة المولِّدة للدخل، وإنفاق طاقة أقل في المسألة الإنجابية. غير أنّ الحد الأدنى من الجهد الذي يجب أن يبذله الرجل في تربية ذرية ناجحة هو ضئيل جدًّا مقارنة بالجهد الذي تبذله المرأة. لذلك لا يعاني الرجال صراعًا مكافئًا لما تعيشه النساء في ما يخص الاختيار بين إنفاق الطاقة على الإنجاب والدخل (Kennedy, 2002). من هنا تنشأ حالة من "الصراعية من حيث الأهداف" بالمعنى التطوري، تقود تدريجًا إلى تغيرات ثقافية تمسّ الرجال والنساء معًا بطبيعة الحال، وتؤدي شيئًا فشيئًا إلى تأسيس أسر أصغر، حتى وإن بقيت الرغبة عدديًّا أعلى لدى الرجل منها لدى المرأة.

يبدو الأمر إذًا وكأن تفاوضًا يحدث للموازنة بين الاحتياجات والأدوار المستجدة في حياة المرأة وبين رغبتها في الاحتفاظ بدورها الأوليّ كأم، ويقترن هذا بتفاوض آخر حول التعريفات المقبولة للذكورة والأنوثة وحول الفرص الجديدة للوصول إلى الموارد، بحيث تأخذ مفاهيم الذكورة والأنوثة معنىً أكثر قابلية للتطبيق في ضوء متطلبات الحياة العصرية. يقود كل ذلك إلى إعادة امتحان ثقافية لما يعنيه أن يكون المرء رجلًا وأبًا وزوجًا، أو امرأةً وأمًّا وزوجة (Kennedy, 2002)، يرافقها بطبيعة الحال تغير في التناول الأخلاقي لهذه القضايا وفي درجة حساسية التعامل معها على المستوى النفسي. من هنا تظهر تباينات كبيرة في طبيعة الوظائف النفسية والمجتمعية التي يؤديها الطفل تبعًا لاختلاف المستوى الاقتصادي والاجتماعي–الثقافي للأفراد. تصنِّف بورغوينيون (Bourguignon, 1987) الوظائف الأهم التي يؤديها الطفل في مجموعات ثلاث: وظيفة وضعياتية Fonction statutaire أولًا، وهي تتعلّق بالهوية المتحصّلة من الأبوة أو الأمومة. تنطوي هذه الهوية على أبعاد تقوم على تحقيق طموحات الوالدين الذاتية من

خلال الأبناء، وعلى السلطة الكامنة في علاقتنا بالطفل بالنظر إلى كوننا متفرّدين بالنسبة إليه. ووظيفة تخصّ الدور Fonction de role وتتعلق بالمصادر المادية التي يقدّمها الطفل، بما في ذلك حضوره عند وجود صعوبات وكبر في السن. ووظيفة حفظ النسب Fonction de lignage التي ترتبط بوجود ضغط أسري وعائلي للإنجاب.

تتصل الأهمية المنوطة بكل واحدة من هذه الوظائف بمكانة وأدوار الرجل والمرأة في المجتمع وبدرجة احتياجهم الطفلَ لتعزيز هذه المكانة من خلال تأديته هذه الوظائف. ويزداد تأثير المكانة عندما يتعلّق الأمر بالمرأة بوجه خاص. فارتفاع المستوى التعليمي للمرأة وعمرها عند الزواج، إلى جانب مشاركتها في الحياة المهنية؛ تغيِّر كثيرًا من حجم الإشباع النفسي المتولد من إنجابها الأطفال. فلا يعود الطفل هو المصدر الرئيس لمكانتها المجتمعية على اعتبار أنها تصير أقدر على تحقيق وجودها الاجتماعي من خلال مشاركتها في الحياة العامة. ويحقق لها العمل مصدر دخل معقولًا وبالتالي ضمانًا – إلى حدّ ما – للشيخوخة.

مع ذلك، لا يمكن التعميم في كل ما سبق على الإطلاق، إذ ما من قاعدة واحدة تحكم المجتمعات على اختلافها، وليس من الحكمة التسرع بالقول بوجود ارتباط أكيد ومباشر بين تعليم وعمل المرأة من جهة، وتمكينها Autonomisation من جهة أخرى. أي أنّ تعليم المرأة ودخولها ميدان العمل لا يقودان بالضرورة إلى امتلاكها حرية اتخاذ قراراتها الإنجابية وفق رغباتها الشخصية. ما زالت المنظومات الاجتماعية ككل تمارس ضغطًا يأخذ أشكالًا متنوعة تبعًا لاختلاف المنظومة القيمية والأهداف الجمعية السائدة. فتشهد النساء بصرف النظر عن مستوياتهن التعليمية ومشاركتهن المهنية ضغوطًا لإنجاب عدد معين من الأطفال، أو عدد من الذكور بوجه خاص في بعض المجتمعات. كما تتدخل العائلة والمحيط الاجتماعي في القرارات المتعلقة بتوقيت بدء الإنجاب والمباعدة بين المواليد. ونجد بالمقابل في بعض المجتمعات التي تغلب عليها النزعة الفردية اليوم دفعًا نحو عدم الإنجاب أو تأخيره أو إنجاب أطفال أقل مما قد ترغب فيه المرأة أو الرجل أو كليهما، ونوعًا من الوصم أو عدم القبول للأسر الكبيرة العدد. وفي كلتا الحالتين كثيرًا ما يخضع الأفراد إلى ضغط الصورة العامة السائدة حتى وإن لم توافق رغباتهم الذاتية تمامًا. تقدِّم النظرية التطورية في الديموغرافيا محاولةً لتفسير هذه الامتثالية Conformisme بالاستناد إلى فكرة أنّه عندما يتعلق الأمر بالسلوك الإنجابي، نكون حساسين بشكل خاص تجاه سلوك الآخرين لأنه لطالما كان وجود دعم في المتناول أثناء الإنجاب وما بعده أمرًا جوهريًّا للوصول إلى إنجابية ناجحة طوال تاريخنا البشري. فالولادة حادثة مكلفة نفسيًّا وماديًّا، ونحن نعي أن ليس من مصلحتنا التعلم من المحاولة والخطأ في تجربة كهذه، وأن من الأجدى الارتكاز إلى المعايير الاجتماعية والتعلم الاجتماعي(Sear, Lawson, Kaplan, Shenk, 2016) حتى وإن لم تتوافق هذه المعايير بالضرورة مع رغباتنا الذاتية كأفراد. هكذا تكون الحصيلة الإنجابية نتاج كلّ متكامل يجمع – وبنسب متفاوتة تبعًا لاختلاف المجتمعات – رغبات كلّ من المرأة، والرجل، والمنظومة المجتمعية القائمة.

تجدر الإشارة إلى أنّ تطور الوضع المتعلّق بالنوع الاجتماعي قد لا يكون واحدًا في المجتمع الواحد على مستوى كلٍّ من القيم الفردية والأسرية. بمعنى أن المجتمع قد يدعم القيم الفردية (في المجالات الاقتصادية والاجتماعية خاصّة)، لكنه يحتفظ في الوقت نفسه بأنماط مؤسِّسة للأسرة والزواج (أو يتسامح مع آليات عمل فيها) لا تحدّ بأي حال من اللامساواة بين الجنسين (Leridon, 2015). مع ذلك يبدو أنّ التغييرات المجتمعية القائمة في عالمنا اليوم أفسحت في الحد الأدنى المجال أمام المرأة لتصير أكثر حرية على الأقل في ما يخص التعبير عن حجم الصعوبات التي تقترن بتجربة الحمل والإنجاب والتنشئة. فمع أنّ الحمل – لأول مرة خصوصًا – ما زال يأخذ شكل تأكيدٍ للهوية الأنثوية إلى حدّ ما، إلا أنّنا نجد أنّ النساء الحوامل بتن يعبرن عن قلقهن ومخاوفهن في شأن الحمل والأمومة أكثر من تعبيرهن عن

الجوانب المُرضية. فيتحدثن بأريحية عن التساؤلات والشكوك النفسية التي يوقظها التكيف مع حالتهن، وعن المخاوف المتعلقة بالتحولات التي تطرأ على أجسادهن، وكذلك عن صعوبة ترتيب الحياة الأسرية والانشغالات المالية. كما تعبّر النساء العاملات عمومًا عن تساؤلات في شأن الدور الأمومي والدور المهني وإمكان المواءمة بينهما. وكثيرًا ما قد ينتج ذلك كله خليطًا من مشاعر الذنب والهشاشة والشعور بعدم الاتساق بالنظر إلى الحدود المادية والعاطفية (Abdel-Baki, Paulin, 2004). وغنيّ عن القول إن الرجل لا يواجه من جانبه تساؤلات هوياتية من هذا النوع. قد تظهر مع ذلك تخوفات تمسّ الرجل والمرأة معًا في ما يخص القيمة الحقيقية المرجوة من إنجاب طفل بالمطلق، أو من إنجاب طفل جديد، وقلق بخصوص التكاليف النفسية المترتبة عن وجوده من حيث بنية العلاقة العاطفية بين الشريكين والحياة المشتركة التي يتصورانها. من الواضح أن وجود مثل هكذا مخاوف أولًا، وإمكان التعبير عنها صراحةً ثانيًا؛ هما أمران يختلفان بشدة باختلاف المنظومات الاجتماعية والثقافية. فما يبدو تحديًا للمرأة في مجتمع ترتفع فيه نسب عمالة النساء مثلًا، قد لا يبدو كذلك في مجتمع آخر يحتفظ للمرأة بأدوار تقليدية. لكن السؤال الهوياتي يبقى مطروحًا أيًّا يكن المجتمع المعني؛ سؤال المرأة الذاتي، وإن لم تصرّح، عن حجم التضحية النفسية والحياتية الواجب تقديمها في عملية التنشئة وإلى أي حدّ تكافئ هذه التضحية ما ستتحصل عليه حاضرًا ومستقبلًا من رضى نفسي ودعم اجتماعي واقتصادي ناتج من الأمومة.

لا تفي الدراسات الديموغرافية هذا الجانب حقه عند بحثها في السلوك الإنجابي ومحدداته. فهي تتبنى غالبًا مؤشرات من قبيل "دور المرأة" و"مكانة المرأة" و"استقلالية الأنثى"؛ متغافلة إلى حدٍّ بعيد عن البعد السياقي للنوع الاجتماعي. فيظهر النوع الاجتماعي في المنظور الديموغرافي ذا سمة فردية أكثر منها مؤسساتية. في حين أن الوعي بضرورة تناول النوع الاجتماعي كمؤسسة اجتماعية من شأنه أن يقود إلى إدراكه باعتباره مبدأ بنيويًا في الحياة الاجتماعية وتوزيع القوة. وهو بذلك يؤثر في الإنجاب كما في مجالات الحياة الأخرى، ويستلزم بالضرورة دراسة النساء والرجال معًا بالاستناد إلى أبعاد اقتصادية واجتماعية وأيديولوجية (Bernardi, 2007).

أوجد تراجع العائلة الممتدة صعوبات في تدبّر الحياة الأسرية ألقت بظلالها على الرجل والمرأة وإن تكن مسّت المرأة أكثر كثيرًا من الرجل. تدخل المرأة في عالمنا المعاصر في إشكالٍ ناجم عن صعوبة التوفيق بين مختلف جوانب الحياة الواقعية والتزاماتها من جهة، وبين رغباتها وعواطفها من جهة أخرى. وهذه الرغبات والعواطف تسجّل بدورها حالة صراع بين ما تحققه تجربة الأمومة من إشباعات نفسية ورضى ذاتي، وبين ما تولّده من أعباء وإجهاد جسدي ونفسي مضنٍ. تقود هذه الصراعية وما يعتريها من مشاعر سلبية في أحيانٍ كثيرة إلى إحساس صريح أو مضمر بالذنب، وتختلف في الشدة باختلاف الظرف المجتمعي والاقتصادي القائم. كثيرًا ما تغفل المسوح والاستطلاعات الديموغرافية عن هذا الشكل من الصراع النفسي، فتكتفي بأسئلة عددية عن العمر عند الزواج والمستوى التعليمي والوضع المهني وعدد الأطفال المرغوب والحالي، وغيرها من المؤشرات العددية الشائعة. وتحاول من خلال هذه المؤشرات التنبؤ بالسلوك من دون تناول كافٍ للفروقات في الرغبات الإنجابية بين الرجل والمرأة، ولحجم الإكراهات التي تتعرض لها المرأة بالذات في مسألة القرار الإنجابي، ولموقعها الفعلي ضمن الأسرة وقدرتها على اتخاذ القرار (بصرف النظر عن مستواها التعليمي ووضعها المهني اللذين لا يقودان بالضرورة ودائمًا إلى تمكين أسري وفاعلية حقيقية في اتخاذ القرار).

لا نعرف الكثير إذًا عن رغبات المرأة ومشاعرها وما يعترضها من إكراهات تمس القرارات الإنجابية، يشير بازو إلى بعض الأمثلة عن المشاعر السلبية المؤثرة في الصحة الإنجابية، وهي أمثلة تحتاج بنظرنا لأن تحتل موقعًا أكبر في البحث الديموغرافي اليوم في مجتمعاتنا المعاصرة المعقدة بنيويًّا:

«يقود الخوف Peur من المنظومة الصحية إلى عدم طلب المعالجة لمشكلات الصحة الإنجابية حتى فوات الأوان غالبًا؛ أما الشعور بالذنب أو العار Honte في ما يخص حملًا غير مرغوب فيه، فإن من شأنه أن يقود إلى البحث عن إجراء إجهاض في ظروف حميمية جدًّا، وبالتالي قد لا تكون آمنة تمامًا. أما الأسى Chagrin لفقدان طفل فقد يقود إلى تجنب إنجاب مولود آخر حتى وإن وجدت رغبة في ذلك، أو قد يقود إلى حمل جديد متعجّل جدًّا (يترك أثرًا سيئًا في مآلات الأمومة والحمل)» (Basu, 2006: 109).

تعطي هذه الأمثلة صورة عن حجم التعقيد النفسي الذي يسم محاولاتنا فهم القرار الإنجابي، وهي أمثلة توضح الجانب السلبي الأكثر شيوعًا في الدراسات القليلة التي تتناول هذه المسألة. وبالمقابل قلما تتجه الدراسات نحو محاولة فهم المشاعر الإيجابية، لدى الرجل والمرأة ودرورها في اتخاذ قرار إنجاب (قد يحدث متعجّلًا مثلًا لتتويج الحب)، أو في إرجاء قرار الإنجاب لوقت يطول أو يقصر (لئلا يحدث تشويش على العاطفة القائمة بين الشريكين)؛ ثم كيف يؤثر ضغط المحيط الاجتماعي في تبدل هذه القرارات الإنجابية، لا بل وفي خلق حالة شقاق وتباعد في القرار الإنجابي بين الرجل والمرأة تبعًا للدور المنوط بكل واحد منهما في مجتمع بعينه أولًا، وتبعًا لاختلاف ما يعيشانه من إكراهات نفسية واجتماعية واقتصادية مرتبطة بالإنجاب من ناحية أخرى. وهي كلها معطيات تحتاج لأن تدخل بتفصيل أكبر ضمن البحوث الديموغرافية التي تتناول الإنجابية والخصوبة.

ثالثًا: من الرغبة (Désire) إلى النية (Intention) والسلوك (Comportement): المسوح والمعرفة بمآلات السلوك الإنجابي

بالانطلاق من الرؤية المفاهيمية السابقة نجد أنفسنا أمام تساؤل محوري في البحث الديموغرافي يتعلّق بآليات تقصي وتفسير "الرغبة" في إطار المسوح والاستطلاعات التي تتناول الخصوبة. والحال فإن مفهوم الرغبة لا يغيب تمامًا عن المسوح الديموغرافية المعنية بالإنجابية، وكثيرًا ما يُنظر إلى مفهوم الإنجاب المفضّل أو المرغوب «كمؤشر ديموغرافي هام ومحدد فاعل في تكوين ملامح ونمط الإنجاب الفعلي في الأسرة، وذلك بسبب تأثيره الحاسم والقوي في تشكيل مواقف الأزواج بشأن حجم وعدد الأطفال الذين يطمحون في الحصول عليهم، باعتبار أن مثل هذا المفهوم يتضمن تصريحًا علنيًّا حول أهداف وتطلعات الأزواج الإنجابية المستقبلية» (كرادشة، المصاروة، 2007: 101). غير أنّ هذه النظرة العامة تنطوي في الحقيقة على إشكالات تطبيقية وتدفع إلى عدد من التساؤلات في شأن مدى إمكان اعتبار التصريح عن "الرغبة" مؤشرًا فعليًّا وحقيقيًّا يدلّ على نية يليها سلوك. هل بإمكاننا بالفعل أن نركن إلى تصريحات الرغبة لنتنبأ بالسلوك الخصوبي المستقبلي؟ وهل يستطيع المستجيبون تحديد رغباتهم الإنجابية بدقة كافية بالفعل، وهل يحتفظون بهذه الرغبات ثابتة على امتداد حياتهم الإنجابية؟ ثم هل تتسّق الرغبات مع النوايا والسلوكات اللاحقة عليها؟

1. في التوظيف المفاهيمي والمنهجي: الأسس والصعوبات

لننتبه بادئ ذي بدء إلى أن الرغبات والنوايا الخصوبية تمثّل من الناحية المفاهيمية بنيات مختلفة: فالرغبات (أو التفضيلات Préférences) تعكس الأهداف والمثل العليا، في حين تُدرِج النوايا خطط عمل وقد تكون أكثر استجابةً للظروف والإكراهات الشخصية (Hayford, Agadjanian, 2012). يعيدنا هذا التقسيم المفاهيمي إلى أوليّة الصراعية بين الأهداف الفردية والأهداف الجمعية والتي ناقشناها على مستويات عدّة في سياق بحثنا. حين نسأل عن الرغبة، فإننا نكون أقرب في مقصدنا إلى ذاتية الفرد وما يريده هو كشخص، بعيدًا من الإكراهات التي يفرضها الواقع. يمس سؤال الرغبة، والذي غالبًا ما يوجَّه إلى مستجيبات من الإناث، عمق البعد النفسي الداخلي، ويرتبط بحالة عاطفية إيجابية أو سلبية محمّلة بتصورات وخبرات سابقة ذات صلة بتجربة الأمومة. أما النية فهي في المقابل حصيلة تفكير

أكثر عقلانية يرتبط بإدراك الظرف القائم والتخطيط بناء على شروطه. والرغبة في ذاتيتها تخص كلّ شريكٍ على حدةٍ، في حين تتأثر النية بالرؤية التي يحملها الطرف الآخر للإنجاب وللأسرة ككل. بكلمات بسيطة، أستطيع كفرد أن أرغب في ما أشاء كتصوّر ذهنيّ، لكن نية تحويل الرغبة إلى أمر واقع ستقوم على إيجاد حالة من التوافق بين هذه الرغبة الذاتية من جهة وبين كلٍّ من رغبة الشريك والظرف الاقتصادي والاجتماعي–الثقافي القائم، من جهة أخرى. أي أنّ النوايا هي «الرغبات وقد خضعت لإكراهات الواقع» (Kennedy, 2002: 126).

كثيرًا ما يغيب هذا التمييز عن الأدبيات الديموغرافية، فيجري الخلط إجرائيًّا بين الرغبة والنية، ويُدرج تحت مفهوم النوايا مثلًا أسئلة من قبيل: – هل تنوين إنجاب طفل؟ – هل ترغبين في إنجاب المزيد من الأطفال؟ – هل تعتقدين أنك ستنجبين طفلًا، أو طفلًا آخر؟ ويجري الانطلاق من أسئلة كهذه للتنبؤ بالسلوك الإنجابي المستقبلي، بل وحتى بإمكان استخدام المرأة وسيلة منع حمل خلال الفترة المقبلة أم لا. والحال فإن الربط الأولي بين الرغبات والنوايا من جهة والسلوك من جهة أخرى ليس أمرًا مغلوطًا في حدّ ذاته، ذلك أن أدلة عبر–قومية وافرة من المسوح الديموغرافية الكبرى في كلّ من الدول النامية والمتقدمة على حدٍّ سواء أثبتت صلاحية مقاييس المواقف في التنبؤ بالسلوك الخصوبي (Hayford, Agadjanian, 2012) لكن الخطأ يكمن بشكل رئيس في مسألتين، أولاهما هي الخلط بين الرغبة والنية، إذ ينبغي معالجة الرغبة في أسئلة مستقلة عن النية بناء على الاختلاف الأساسي في المعنى الذي ينطوي عليه كلا المفهومين. وثانيهما ضرورة أن تتوسع المسوح الديموغرافية في تناول رغبات ونوايا الشريك، وأن تنظر إلى الخصوبة باعتبارها حصيلة تفاعل رغبات ونوايا الشريكين من ناحية، وتأثيرات البيئة المحيطة والضغط المجتمعي الهادف إلى توجيه إنجابية الجماعة نحو تحقيق أهداف جمعية معينة من ناحية أخرى.

يمكن الاستفادة في هذا الصدد من المخطط الذي قدّمه وارين ميلر وعدد من الباحثين (الشكل 1) للتعبير عن التقاطعات بين السمات والرغبات والنوايا الخاصة بكل واحد من الشريكين، والتي تؤدي في حصيلتها النهائية إلى سلوك مشترك. مع الانتباه إلى أنّ السلوك الإنجابي ينقسم مفاهيميًّا إلى بعدين: سلوك مانع للحمل Contraceptive هدفه الحيلولة دون حدوث حمول، وآخر استباقي جاذب Proceptif يهدف إلى تحقيق الحمول (Kennedy, 2002). وتختلف المحفزات لدى الشريكين باختلاف طبيعة الهدف الإنجابي، ودرجة الضغط الذي تمارسه المنظومة المجتمعية والثقافية لتحقيق أهداف إنجابية بعينها.

ينبغي إذًا وبالانطلاق من هذه الرؤية إفساح المجال أمام النساء والرجال للتعبير عن الرغبات والنوايا بشكل مستقل، كما ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار الفروقات بين الرغبة والنية لدى كل واحد من الشريكين على حدةٍ من ناحية، وبين رغبات ونوايا الرجال في مقابل رغبات ونوايا النساء من ناحية ثانية. تفتح مقاربات من هذا النوع الباب واسعًا أمام فهمٍ معمّق للعوامل الفردية والجمعية الفاعلة في القرار الإنجابي، وتسهم في التزويد بمعرفة أعمق بالفروقات بين الجنسين في ما يخص حياتهما الإنجابية المشتركة، كما أنها تساعد في الإضاءة على العوامل الثقافية التي تؤثر في الأفراد فتولّد في أحيانٍ كثيرة فروقات بين الرغبة الذاتية الصرف، وبين النية الخاضعة لأثر الشريك والضغط المجتمعي معًا.

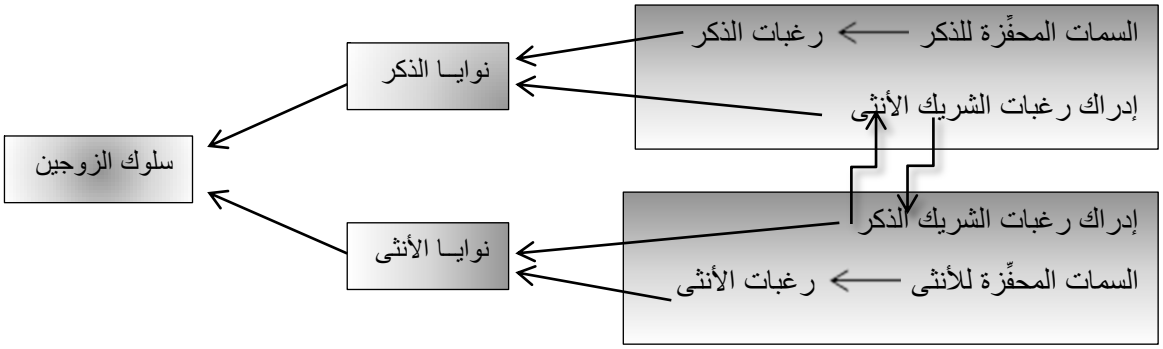

الشكل (1): النموذج النفسي للسمات – الرغبات – النوايا – السلوك

المصدر – رُسم الشكل بالاستناد إلى ما ورد في: (Kennedy, 2002: 127)

ليست هذه بالمهمة اليسيرة، إذ قد نتلمّس لأول وهلة تباعدًا بين متطلبات تطبيق هكذا مقاربات، وبين المنظور الكلاسيكي الكمي للديموغرافيا. فتناول الرغبة لا ينفصل عن تناول العاطفة التي تمايز كلّ فردٍ عن الآخر وتمسّ عمق ذاته وبنيته النفسية، لذا ينبغي التعامل مع دلالات الرغبة المتعلقة بالطفل «بحذر طبيب سريري، يفك رموزها، ويعرف أنّ كلّ رغبة قد تكون في آنٍ إنكارًا أو آلية دفاعية ضد رغبة أخرى، وأنها تختلف عن بعضها البعض في العمق والشدة والنوعية، وأنّ بعضها ملتبس والبعض الآخر قهري أو طاغٍ يصعب احتواؤه، وبعضها أخيرًا مثابر ومتين» (Bourguignon, 1987: 101). من هذا المنطلق، من المفيد أن تتنوع الأسئلة التي تخصّ الرغبة والنية في إطار المسوح والاستطلاعات ذات الطابع الاجتماعي والسكاني، وأن يؤخذ في الاعتبار – كلّما أمكن ذلك – أثر الفروقات في الرغبات والنوايا بين الشريكين، وأثر المنظومة المجتمعية في القرار النهائي.

على الرغم من أن المسوح الديموغرافية لا تخلو من محاولات لتغطية هذا البعد، غير أنّ الصعوبات المنهجية كانت وما تزال تشكّل عائقًا كبيرًا أمام مسعى إدماج هذا البعد النفسي، المرتبط بالرغبة والذي ينطوي على أثرٍ للعاطفة، في مختلف الدراسات السكانية، وخصوصًا من بينها تلك التي تعمل على تناول مجموعات بشرية كبيرة وتسعى إلى أكبر قدر ممكن من التعميم. يلاحظ بازو أنّ المشكلة المنهجية تأتي من الفرع المعرفي في ذاته، ذلك أنّ أي مسح اجتماعي قياسي (وهو ما يشكل عصب الاتجاه العام القائم في الديموغرافيا) لا يمكنه الذهاب بعيدًا في التقاط الأسس العاطفية للمآلات الديموغرافية (وفي هذا الصدد ربما يكون لعلم النفس بعيناته الأصغر حجمًا بكثير، امتياز على الديموغرافيا). ويزداد الأمر صعوبة لدى الانشغال، كحال البحث الديموغرافي عادة، بتجربة المجموعات الصامتة Groupes sourdines، إذ غالبًا ما تكون هذه المجموعات مُكيَّفة بطريقة تقلل من شأن عواطفها الظاهرة للعيان، لا بل وحتى من شأن الجانب المعرفي لتجاربها العاطفية. تشكل النساء عنصرًا رئيسًا في هذه المجموعات، ما يعني أنّ المرأة ضمن ظرف معين قد تكون غير قادرة على التعبير عن عاطفتها ببعديها المادي والمعرفي بالنظر إلى اصطباغ التنشئة عمومًا بصبغة جندرية (Basu, 2006)، وبالتالي تكون الإجابات التي تقدمها المرأة أقرب إلى استجابات لما يريده المجتمع ويفرضه ويتوقعه، منها إلى تعبير حقيقي عن رغبات وعواطف ذاتية خاصة؛ الأمر الذي قد يؤدي إلى التشويش على محاولات التكميم والتعميم في البحوث الديموغرافية عمومًا، وتلك المتعلقة بالجنسانية والصحة الإنجابية على وجه الخصوص.

2. عناصر لإدراج البعد النفسي للقرار الإنجابي في المسوح الديموغرافية

لعلّ أحد المفاتيح الأولى لمواجهة بعضٍ من الصعوبات المنهجية التي أوردناها أعلاه هو تصميم مسوح ديموغرافية مخصصة لهذا البعد النفسي، تحتوي أسئلة أكثر تنوعًا تهدف إلى تقصي مختلف الأبعاد الذاتية المضمرة في القرار الخصوبي؛ أي تجنب الاكتفاء بأسئلة تحصي العدد فحسب (كمثل: هل ترغبين في الإنجاب؟ كم طفلًا ترغبين في إنجابه؟ وما عدد الأطفال المثالي في الأسرة بنظرك...الخ)، وإضافة أسئلة تتقصى التأثيرات العميقة للتجارب السابقة (كم كان لكِ من الأخوة والأخوات؟ هل تعتقدين أنك ترغبين بأسرة مماثلة عدديًّا لأسرتك الأصلية، ولماذا؟ هل يرغب شريكك في أطفال أكثر/أقل منك؟ لماذا نلمس برأيك تباعدًا بين رغباتك ورغبات الشريك في مسألة الإنجاب؟ هل تعتقدين أنك سترضخين لرغبة الشريك أم العكس، ولماذا؟). أضف إلى ذلك ضرورة أن يعي جامعو البيانات الخصوصيةَ الثقافية للمجموعة الاجتماعية التي يجري فيها البحث، ومكانة المرأة فيها، ومدى قدرتها على التعبير عما يدور في ذهنها صراحةً، وكذلك اللغة المحلية ودلالتها الخاصة. يسهم كل هذا التأسيس في الوصول إلى معرفة حقيقية بالرغبة أولًا، ثم بالنوايا الإنجابية ثانيًا؛ والأهم من كل ذلك، بمدى قدرة المرأة (أو الشريكين معًا) على تحويل النوايا الخصوبية إلى سلوك فعلي. كما يجب أن تأخذ التحليلات في الاعتبار نسبيّة النتائج وإمكان تعرّضها للتغيير، فتُدرج أسئلة تقصٍّ على شكل احتمالات متنوعة (هل تعتقدين أن خططك الإنجابية الحالية ثابتة؟ – مع وضع تدرجات لنسب الثبات؛ ما هي برأيك العوامل التي قد تؤدي إلى تعديل هذه الخطط؟ – مع وضع خيارات عدة)، بما يأخذ في الحسبان إمكان حدوث «إعادة تقويم للمشروع الأسري خلال تحققه. إذ تتبدل الدوافع والصراعات المتعلقة بالطفل والوالدية مع الوقت، ذلك أن العلاقات مع الأطفال الذين سبق إنجابهم ومع الأسرة التي جرى تأسيسها تؤثر في الدافع إلى متابعة التجربة» (Bourguignon, 1987: 106). كما يؤثر في هذا الدافع أيضًا التفاعل والتبادل الذي يحدث بين الشريكين وخبرتهما الحياتية المشتركة والتي قد يكون من شأنها أن تُعدِّل مع مرور الوقت دوافع أحدهما تبعًا لتصورات الخصوبة لدى الشريك الآخر. هذه عملية معقدة تحصل تدريجًا عبر زيادات صغيرة في كلّ مرة، وعادة ما تنزع – إن لم يكن دائمًا – إلى تكوين إجماع توافقي (Miller, Pasta, 1995). لكن المشكلة تبقى منهجيًّا متمثّلة في تحديد النقطة التي يحدث عندها هذا الإجماع بالفعل، أي متى يمكن أن نبدأ بالقول إن الشريكين قد أمضيا في حياتهما المشتركة ما يكفي من الوقت لبناء هذا التصور التوافقي. ما من إجابة مطلقة عن هذا السؤال، ولعل حصيلة الوعي بهذه المشكلات إنما تدعونا، في أقل تقدير، إلى توخي الدقة والانتباه إلى أثر عامل الزمن (المدة المنقضية من الزواج أو الاقتران، وعدد الأطفال الذين سبق إنجابهم، وعمر كلا الشريكين) في إمكان تبدل الأهداف الإنجابية، أو تبدل منظور الشريكين للأسرة والغاية منها.

بالإجمال يقود الربط بين المنظورين الأنثروبولوجي والنفسي–الاجتماعي إلى تبيان أن الأفراد في واقع الأمر «قد لا يمتلكون خططًا صريحة في شأن الفعل المتعلّق بالإنجاب، وقد تتغير هذه الخطط قبل إنجازها، وقد تكون الخطة مبهمة، ضعيفة التحديد، أو غير مهمة نسبيًّا مقارنةً بخطط أخرى متزامنة معها» (Johnson–Hanks, 2007: 7). أضف إلى ذلك ما سبق وأشرنا إليه من فروقات بين الرغبة والنية، وكيف أنّ الرغبة تعكس تصوّرًا مثاليًّا في حين يُفترض بالنية أن تدل على خطة واعية للتكيف مع الإكراهات القائمة، وبالتالي أن تسمح بتوقع السلوك المستقبلي. بمعنى آخر، فإن الرغبات الخصوبية «تتطلب تمرينًا افتراضيًّا يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمفهوم الطلب على الأطفال (والذي هو عدد الأطفال الذين ينوي الفرد إنجابهم في غياب أي تكاليف ذاتية أو اقتصادية للتحكم بالخصوبة). يشير بعض الأدلة التجريبية إلى أن العديد من المستجيبين لا يكشف الاختلافات بين هذه المصطلحات، أو أنه غير قادر على

التزام المهام المفاهيمية الضمنية التي تميزها، أو أنه غير راغب في ذلك» (Morgan, Hagewen, 2005: 237). في حالات كهذه يمكن أن يقود التسرع في الاستنتاج التعميمي في شأن الخصوبة المستقبلية، بالاستناد إلى إجابات المستجيبين عن أسئلة بسيطة وعامة جدًّا، إلى نتائج يصعب تحري صدقها وثباتها المستقبليين.

بالتأكيد، لا نعني بكلامنا هذا القول بعدم جدوى مسوح الخصوبة الكلية التعميمية، أو غياب فاعليتها بالمطلق. إذ إننا ضمن المنظور الكليّ العام للبحث الديموغرافي نكسب من المسوح بشكل رئيس دراسة الارتباط بين الخصوبة وعدد من المتغيرات التي من شأنها أن تترك أثرًا فيها، كمستوى التعليم والدخل مثلًا، والنشاط الاقتصادي في الماضي والحاضر، والحراك الجغرافي والممارسة الدينية...الخ. كما أنها تسمح بإعادة بناء مجمل الحياة الخصوبية للمرأة، آخذة في الاعتبار حالات إسقاط الأجنة، وممارسات منع الحمل (Girard, 1977). وغني عن القول إن هذه المسوح لا تنشغل بالأفراد بوصفهم كذلك، بل تحاول من خلالهم التوصل إلى المواقف الجمعية التي يعبرون عنها. وبالتالي فإن اختلاف التفصيلات المتعلقة بفردية كل واحد منهم تنصهر في حصيلة كلية مع رؤية جمعية، ولا يعود لثقل هذه الفروق الفردية أثر إجمالي كبير، وبالتالي يكون التعميم ممكنًا تمامًا.

ما يهدف إليه إدراجنا هذا البعدَ التكاملي هو توسيع أفق البحث المسحي الخصوبي، وإضفاء طابع أكثر علمية وموضوعية على البحوث التي تنشغل بتعريف المُثُل بالذات، كمثل الحجم المثالي للأسرة والمسافة الفاصلة بين المواليد الأكثر تفضيلًا، ودوافع زيادة عدد الأطفال أو خفضه، والأهمية المنوطة بالنمو السريع أو البطيء للسكان، وكل ما هنالك من أحكام أخرى تتناول الوضع العام في ارتباطه بحركة السكان أو بنيتهم (Girard, 1977). في مثل هكذا بحوث يكون المنظور التكاملي الذي نطرحه هنا محوريًّا وأساسًا لمصداقية النتائج وضبطها. فهذه البحوث ستظل محدودة القدرة على الوصول إلى أهدافها الفعلية في توصيف واقع المُثُل الخصوبية، والنوايا التي تعبِّر عنها، ثم التنبؤ من خلالها بالسلوك المستقبلي للأزواج ومآلات الخصوبة ككل؛ ما لم تأخذ في الاعتبار ضرورات الضبط المفاهيمي للمصطلحات المستخدمة، وتحديدها إجرائيًّا، وتجنب حدوث خلط في ما بينها، ووضع مجموعات متنوعة من الأسئلة – بالتعاون مع متخصصين في علم النفس – تكون قادرة على سبر عمق البعد النفسي الذاتي الخاص بكل فرد في تجربته الوالدية الماضية والحاضرة، بالتزامن مع فهم تأثير الواقع وإكراهاته، إلى جانب أثر المتغيرات التقليدية (من عمر ومستوى تعليمي ونشاط مهني...الخ)؛ بما يساعد في رسم صورة أقرب ما يمكن إلى واقع السلوك الإنجابي الحاضر ومآلاته المستقبلية.

خلاصة

على الرغم من اصطباغ البحوث الديموغرافية عمومًا، وتلك المتعلقة من بينها بالخصوبة والظاهرة الإنجابية خصوصًا، بصبغة كمية توصيفية؛ إلا أن الباحثين في الديموغرافيا لم يغفلوا يومًا عن حجم التداخل الكبير والتفاعلات المعقّدة بين الظواهر الديموغرافية ومجمل العوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيولوجية والنفسية القائمة في المجتمعات المختلفة. مع ذلك، يبقى حضور العمل التكاملي في البحث الديموغرافي خجولًا نسبيًّا وغير كافٍ، في حين أنّ ضرورته تزداد في وقتنا الحاضر مع حجم التعقيد الكبير الذي بات يسم المجتمعات البشرية على اختلافها. فالانفتاح التكنولوجي ولّد انفتاحًا معرفيًّا أدى بدوره إلى اتساع نظرة الأفراد إلى العالم من حولهم وتغيّر رؤيتهم وتلقيهم قيم وعادات مجتمعاتهم المحلية. ما عادت المجتمعات المحلية ضيّقة ومنغلقة على ذاتها، وما عادت الثقافات المحلية بمنأى عن تأثيرات التنوع الكبير في النظم المجتمعية والثقافية القائمة في العالم ككل. هكذا يجد الأفراد أنفسهم أمام المزيد من الخيارات والمزيد

من التحديات، والتي تولِّد بدورها مزيدًا من الصراعية بين القيم الأصلية المتجذرة في الجماعة، وبين الرغبات الذاتية التي تخص الفرد بالانطلاق من رؤيته الخاصة للعالم والحياة والمستقبل.

لا تخرج الرغبات والنوايا الإنجابية، وما يتبعها من قرارات وسلوكات على أرض الواقع، عن هذه الصورة العامة. فالسلوك الإنجابي للفرد ليس ظاهرة بسيطة تتحدد بعدد من المتغيرات الكمية القابلة للضبط ببساطة، وهو ليس ما يظهر للعيان فحسب، بل فيه جانب ضمني متحصِّل من التجربة الخاصة بكل فرد بوصفه شخصًا ذا كيان نفسي مستقل. هذا الجانب الذاتي ينعكس بشكل مباشر في الرغبة والنية والسلوك، ويترك أثره في مآلات الخصوبة على مستوى المجتمع ككل. من هذا المنطلق، تستلزم دراسة الخصوبة والسلوك الإنجابي التنبّه إلى هذا البعد النفسي وتفاعله مع المنظومة المجتمعية وتأثره بها. الأمر الذي يتطلّب بدوره الانشغال في المقام الأول بضبط المفاهيم والمصطلحات التي تُعبِّر عنه والانتباه إلى مشكلات الخلط بين ما تعكسه تعبيرات الرغبة أو العاطفة أو النية أو القرار الإنجابي، وأثر كل واحد منها في السلوك الفعلي القائم، وفي التنبؤ المستقبلي.

أظهر العرض التحليلي لمجمل الأبعاد النفسية المتضمَّنة في كل قرار إنجابي، والمنعكسة في كلّ سلوك خصوبي، أهمية العمل التكاملي بالاستفادة من المنظور النفسي في التوصل إلى معرفة أكثر دقة بالظواهر الديموغرافية وما يرتبط بها من عناصر وعوامل فردية ومجتمعية. وبيّنت المقاربة المقترحة هنا حقيقة أنّ القرار الإنجابي والسلوك الناجم عنه ليسا نتاج حسابات عقلانية منبنية على مفاضلة بين التكلفة والمنفعة الاجتماعية والاقتصادية التي يمنحها الطفل للوالدين والمجتمع فحسب، بل هما نتاج بنيان نفسي يخص كلّ فرد في تجاربه العاطفية والنفسية الخاصة، وفي علاقاته بأسرته الأصل كما بالأسرة الجديدة التي يزمع إنشاءها. ومن هنا تكون المحفزات السلوكية الخاصة بكل فرد، وتقاطعاتها لدى التقاء شريكين في علاقة اقتران لإنشاء أسرة، فاعلة بشكل مباشر في نوايا الأزواج وقراراتهم الإنجابية، جنبًا إلى جنب مع البيئة الاجتماعية وتحفيزاتها وإكراهاتها. هكذا تقود القراءة التكاملية من ناحية أولى إلى إثراء الفكر الديموغرافي، إذ يستعين بعلم النفس للوصول إلى فهم أعمق للعوامل الذاتية الفاعلة في القرار الإنجابي، فيغتني بذلك التنظير للمسألة الإنجابية ومحدداتها والعوامل الفاعلة فيها. وتقود من ناحية ثانية إلى تطوير البحث المسحي الكمي في حدّ ذاته بإضفاء طابع "إنساني" أكثر التصاقًا بالفرد ككائن ذي بنية نفسية بالغة التعقيد في ذاتها وفي تفاعلها مع إكراهات المحيط، بما فيها الإكراهات المتعلقة بالنوع الاجتماعي.

تعتري هذا النوع من البحوث التكاملية صعوبات، ويواجه عثرات هنا وهناك تتطلّب بشكل رئيس توجيه الجهود نحو الانشغال بضبط مفاهيمي دقيق للمصطلحات المستخدمة في البحوث النفسية–الديموغرافية، وضبط منهجي للأدوات البحثية الواجب توظيفها بحيث تتجاوز الأطر التقليدية للمسوح الكمية الارتباطية الشائعة ديموغرافيًّا في هذا الشأن، باتجاه مسوح معمّقة تستفيد من هذا التناول للبعد النفسي في تعميق المعرفة بواقع السلوك الإنجابي ومستقبله، لكن من دون التخلي تمامًا عن الطابع الكمي التعميمي الذي يشكّل خصيصة المسوح الديموغرافية، بل من خلال التوسع في أنماط الأسئلة والتحليلات المطروحة، بما يسمح بسبر أكثر تفصيلًا للجوانب الذاتية المضمرة لدى الفرد، والفاعلة شعوريًّا أو لا شعوريًّا في نواياه وسلوكه الإنجابي.

ونحن في محاولتنا هذه لا ندعي الوصول إلى إجابات مطلقة عن مجمل الأسئلة الإشكالية التي من شأن أي عمل تكاملي يجمع بين منظوري علمين متباينين أن يقود إليها. فمسعى هذه القراءة الأساسي إنما هو حلحلة بعض الثوابت التقليدية في الفكر الديموغرافي، والانتباه إلى ضرورة تجاوز القوالب الجامدة والانفتاح على مزيد من التساؤلات والتحليلات التي تفرضها الرؤية التكاملية، وبها تغتني البحوث في مختلف الفروع المعرفية.

المراجع:

1- العربية:

-دوتش، هيلين. **علم نفس المرأة: الأمومة**، ترجمة: إسكندر جرجي مصعب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 2008، 527.

-شريقي، مدى. **تطور الخصوبة السكانية في سورية منذ الاستقلال**. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة/بيروت، 2015، 671.

-شريقي، مدى. «الديمغرافيا الأنثروبولوجية: حيث تلتقي الأضداد». **إضافات**، الجمعية العربية لعلم الاجتماع ومركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العددان 53-54، صيف-خريف 2021، 180-204.

-فرويد، سيغموند. **قلق في الحضارة**. ترجمة: جورج طرابيشي، ط4، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1996، 118.

-كرادشة، منير؛ المصاروة، عيسى. «الرغبات والنوايا الإنجابية المستقبلية بين الأسر في المملكة الأردنية الهاشمية: المستويات والمحددات». **مجلة أبحاث اليرموك**، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 23، العدد 1، آذار 2007، 93-127.

2- الأجنبية:

- ABDEL-BAKI, Amal ; PAULIN, Marie-Josée. *« Du désir d'enfant à la réalisation d'enfantement : I. Perspectives psychologiques du vécu normal autour du désir d'enfant et de la grossesse »*. Médecine et Hygiène, vol. 24, n°1, 2004, 3-9.
- BASU, Alaka Malwade. *«The Emotions and Reproductive Health»*. Population and Development Review, vol. 32, n° 1, March 2006, 107-121.
- BERNARDI, Laura. *«An Introduction to Anthropological Demography»*. Max Planck Institute for Demographic Research, Working Paper, Germany, August 2007, 20p. (Last visited 20/1/2022). Online: https://www.demogr.mpg.de/papers/working/wp-2007-031.pdf
- BOURGUIGNON, Marie-Odile. *« La question de l'enfant »*. L'Année Sociologique, 3éme série, vol. 37, 1987, 93-118.
- FRIEDMAN, Debra; HECHTER, Micheal; KANAZAWA, Satoshi. *«A theory of the value of children»*. Demography, vol. 31, n° 3, Aug. 1994, 375-401.
- GIRARD, Alain. *« Enquêtes d'opinion et connaissance de la fécondité »*. Population, vol. 23 (La mesure des phénomènes démographiques : Hommage à Louis Henry), Sept. 1977, 249-260.
- HAYFORD, Sarah; AGADJANIAN, Victor. *«From desire to behavior: Moderating factors in a fertility transition»*. Demographic Research, vol. 26, Article 20, May 2012, 511-542. (Last visited 3/3/2022). Online: https://www.demographic-research.org/volumes/vol26/20/default.htm
- JOHNSON-HANKS, Jennifer. *«What kind of theory for anthropological demography»*. Demographic Research, vol. 16, Article 1, January 2007, 20p. (Last visited 29/12/2021). Online: https://www.demographic research.org/volumes/vol16/1/default.htm
- LERIDON, Henri. *« Théories de la fécondité : des démographes sous influence ? »*. Population, vol. 70, n° 2, 2015, 331-373.
- KENNEDY, David. *Gender, Culture Change, and Fertility Decline in Honduras: An Investigation in Anthropological Demography*. PhD, University of Florida, 2002, 291.

- MILLER, Raymond C. *«Interdisciplinary: Its meaning and consequences»*. International Studies Association and Oxford University Press, 27 August 2020, (Last visited 2/12/2021). Online: https://doi.org/10.1093/acrefore/9780190846626.013.92
- MILLER, Warren B.; PASTA, David J. *«Behavioral intentions: Which ones predict fertility behavior in married couples?»*. Journal of Applied Social Psychology, vol. 25, n°6, 1995, 530-555.
- MORGAN, Philip; HAGEWEN, Kellie. «Fertility». In: Dudley L. POSTON; Michael Micklin (eds.). *Handbook of Population* (Series Handbook of Sociology and Social Research), Kluwer Academic/Plenum Publishers, New York; Boston, MA; Dordrecht; London; Moscow, 2005, 918.
- SEAR, Rebecca; LAWSON, David W.; KAPLAN, Hillard; SHENK, Mary K. *«Understanding variation in human fertility: what can we learn from evolutionary demography»*. Philosophical Transitions: Biological Sciences, vol. 371, n° 1692, April 2016, (Last visited 25/12/2021). Online: http://dx.doi.org/10.1098/rstb.2015.0144
- WATSON, Peter. *«Psychological Perspectives on Population»*. Alternatives: Perspectives on Society, Technology and Environment, vol. 1, n° 3, winter 1972, 3-11.